حول الشعر الجديد

الشاعر العربي نحو المستقبل

بقلم محمد زفزاف

من المؤكد ان على الشعر العربي الجديد ان يقفز الى مستوى عالمي . ولا يمكن للمرء ان يجزم فيما اذا اصبح هذا الشعر عالميا ام لا لاننا لم نستمع بعد الى نقاد عالميين يعطون رأيهم في شعرنا ، ليس لان هذا الشعر لم ينقل بعد الى لغات العالم فقط ، بل لانه ما يزال مرتبطا بالوضعية الاجتماعية العامة التي يعيشها الانسان العربي . وهذه الوضعية الاجتماعية ـ او الوضعيات ـ ما تزال تدرس بتحفظ واناة ، بل وفي احتيال احيانا . والمثل المعروف يقول : « الصينيون اولا ، ثم العرب ثانيا . » فالحقيقة ان الوقت لم يحن بعد للالتفات الينا . على اننا لا نسعى الى ذلك ولا نحاوله ، اضافة الى القمع الذي نمارسه على انفسنا بدافع مركب النقص . ولا ارغب هنا في دراسة ظاهرة اجتماعية معقدة ، لكني احاول فقط التأكيد على انه ليس في امكاننا معرفة ما اذا كان الشعر العربي الجديد قد اصبح عالميا . وحيث ان المقياس نفسه يظل نسبيا الى حد بعيد ، فالاحتمال موجود دائما . لكننا لا ننسى ما يلعبه الدور الاقتصادي في تطوير اية حركة ثقافية ، وانهائها، وطبعها بطابعها الخاص المتميز .. ان الشاعر في نيويورك او لندن مثلا ، ليس هو الشاعر في صنعاء او الرباط . فالعوامل الاقتصادية تحدد مناحي الاتجاهات الثقافية والشعرية . وعلى ضوء هذا التحديد (نقيس) مدى فاعلية الشعر ، ومدى عالميته او عكسها .

لقد حاولت القصيدة العربية الجديدة ، ان تنفس هواء جديدا في السنوات الاخيرة . وحاول الشاعر العربي الجديد أن يتخطى المحاذير والمعرفلات . واما ما بعد هذه المحاولة ، والنتيجة التي حصلنا عليها ، فذلك هو ما ترجوه الدراسات التي كتبت عن هذا الشاعر وحاولت افهامه للجمهور . وبما ان الدراسات في اغلبها كانت تستمد مقاييسها من مفاهيم غربية ، نابعة من وضعية اقتصادية معينة ، فان شعرنا مشى في الطريق الوعر الذي انتهجه له الناقد . وقلما بقي هناك شاعر لم يتأثر الا بما توحي به تجربته الخاصة ، وطموحه الادبي ، واصالته . وليس هذا عيب الشاعر العربي وحده ، ولكنه عيب أي شاعر كان يمكنه أن يحل محله . فامام جلجلة المصطلحات وتشابك المفاهيم ، واختلاط النظريات النقدية ، جاءت القصيدة العربية غير مكتملة . (دون حتى أن نحدد كلمة اكتمال .) وكان العدد الذي خرج من الدائرة قليلا جدا . وهذا العدد هو الذي استطاع أن يكون مجموعه الشعراء القلائل الذين يقودون المجموعة المقلدة الكبيرة . فاذن هناك ، شان اية حركة شعرية ، اقلية تقود اكثرية . واما المفاهيم الشعرية للعصر ، والتحولات الناشئة بخصوص القصائد . كل هذه ، اذا اردنا ان نبحث عنها ، فنحن مضطرون للبحث عنها لدى هذه الاقلية ، بوصفها المجموعة التي تقود باقي الاكباش وراءها طيلة عصر .

وتتمتع هذه الاقلية عادة بمواهب جديره بالدراسة والاهتمام ، كما تتمتع بطموح كبير لخلق عوالم شعريه ، يتجلى فيها الحس الشعري الناضج بوضوح . وهذا هو المطلب الاساسي لاي قصيدة : ابراز الحس الشعري وتعميقه ، وتقريبه للذوق العام . واذا ما اردنا استعراض نماذج القصائد التي يتوفر فيها هذا العنصر ، عثرنا على عديد منها يستحق التنويه . وذلك عند الشعراء الاوائل : السياب والبياتي وادونيس وحاوي وعبد الصبور والملائكة الخ الخ . ويعمق هذا الحس كذلك في بعض قصائده ، الشاعر محمود درويش ، على ان البعض الاخر من قصائده غالبا ما طبعه السرعه ، وعدم خدمة القصيدة بالشكل الضروري لانمائها ، ان طبيعة الشكل نفسه ، لا تخدم بالضرورة تجربة الانماء ، والارتفاع بالحس الشعري الى مستوى عال من اللطف . فانا استطيع ان اتعرف على قصة حب الان ، عندما اقرأ لاكبر الشعراء غموضا اي . اي . كامنجز . واستطيع ان ادرك حدسا ـ لان الشاعر يذكي الحدس ويوقظه ـ ما وراء السطور المشوشة ، التي تضطرب في ذاكرة الشاعر ، والتي لا يستطيع ان يلحقها ابدا ، لانها ليست جاهزة.

على طول الشوارع اللينة الخائفة الحية
للذاكرة يأتي قلبي ، معنيا مثل

أحمق ، موشوشا مثل مخمور
(في مفترق ما ، فجأة) يلتقي
برجل الشرطة الكبير لفكري ،
متيقظا
غير نائم ، في مكان آخر تبدأ
التي هي ـ الان منطوية ، لكن العام يكور
حياته على شكل سجين منسي .
ـ « هنا ؟ » ـ « آه لا ، يا عزيزي ، الجو بارد جدا » ـ
لقد ذهبوا : وعلى طول هذه الحدائق تهب ريح تحمل
المطر والاوراق ، مائلة الهواء بالخوف
والدفء .. توقف . (نصف موشوشة .. نصف مغنية

تقلب أفراس الخشب المبتسمة دائما)
عندما كنت في باريس كنا نلتقي دائما .

هناك في القصيدة تكامل للصورة الشعرية . أنا لا أبحث الان عن نسق كلاسيكي للابيات ، لكني اشعر ، انني امام اغتصاب للغة . وحيث

ان الشاعر ، كان يردد دائما كلمة دولاكروا المعروفة « الفن هو الاغتصاب . » فان المجال يكون مفتوحا لاغتصاب العالم ، ابتداء من اللغة الى الخيال المنظم التقليدي . واذ اختار هذه القصيدة المركبة ، فانما لكي اصل الى ان الحس الشعري يمكنه ان يوجد ، حتى في القصيدة التي تتخذ شكل مربع الخانات على الطريقة اليابانية (انظر : مقدمة دكتور كروسمان لعشرين قصيدة لكامنجز . سلسلة شعراء اليوم، سبيغر ـ باريس .) فليس ضروريا ان اركب الجملة بالطريقة التي فرضها التقليد الادبي . وليس ضروريا كذلك ان يستنزف الشاعر كل الخيالات التي علقت بذهنه اثناء قراءة كبار الشعراء . المهم ان يفتح عينيه على الحقيقة الوحيدة التي تظهر امامه : القصيدة ، فهي الحقيقة الملموسة ، الوحيدة . هي الحقيقة التي تبرهن على الوجود الفعلي للشاعر ، وهو يواجه جميع الاحتمالات الممكنة في العالم .

ان القصيدة العربية ـ هكذا بتعميم ـ حاولت ان تصل الى مستوى الفعالية ، والكشف الا ان الموجة الغالبة ، كانت هي الالتصاقة بالتراث واستجلابه . وقد وفق بعض الشعراء بهذه العملية الى اخصاب رؤياهم للعصر : ادونيس ، والبياتي في الدواوين الاولى من مرحلته الثانية ، وكذلك حاوي ، الذي ظل يكل تحفظ يدور في حلقة خاصة بعيدا عن اي تأثير او تأثر . ويقرب من اتجاهه هذا ، الشاعر السوري علي الجندي الذي حاول ان ينمي الحس الشعري الذي وضعه ، واعتقد انه انتهى منه ، خليل حاوي في لبنان . وسيسير عبد الصبور في صعود لكي يرقى بقصيدته الى عالم جديد ، لكنه امتداد لما بدأه في السابق . لم تكن هناك اية قطيعة مطلقا ، كان هناك امتداد في خط واحد . اما البياتي فقد هيأ لنفسه ثلاث مراحل . والمرحلة الثالثة دشنتها قصائده الاخيرة في « قصائد حب على بوابات العالم السبع » حيث صار يمزج الاتجاه الصوفي بالثورة ككيان مادي . ويعلل ذلك : « انا اؤمن بنظرية الحلول لا على طريقة الصوفيين ولكن على اساس المذهب الثوري في فهم الاشياء والظواهر » وبخصوص التراث : « ان الشعراء والفنانين مطالبون اكثر من غيرهم بعملية احياء التراث . على ان يتم ذلك دونما قصد مسبق منهم ، وانما يأتي ذلك لديهم نتيجة او محصلة لعملية استيعابهم وتعبيرهم الفني عن موجود التراث » (محمد مبارك . مجلة الاقلام العراقية . العدد ١١ ـ السنة ١٩٧٢)

ان تعدد الاصوات وتفردها في نفس الوقت ، جعل القصيدةالعربية الجديدة تكتسب لها مكانة جيدة ضمن باقي الآليات السوسيو ـ ثقافية ، لكن ذلك ليس هو المطلب الوحيد والنهائي . وقد شعر مجموعة من الشبان في العراق بالخصوص ولبنان وسوريا بهذا ، فقرروا اغتصاب الخيال المنظم النظيف الذي حاوله « الرواد » ومجموعة الاكباش الاخرى . ان القصائد الاخيرة التي نقرأها لهؤلاء الشبان ، جعلتنا نتلمس الاداة الشعرية الناضجة ، والحس الشعري الناضج من خلال التركيب الطريف للعمل الشعري كعمل موحد ، نابع من ذات الشاعر الصادقة . وخلاصة مجموعة الاليات الاخرى التي تكون عالمه . الشاعر الصادقة . وخلاصة مجموعة الآليات الاخرى التي تكون عالمه . حاول ان يتخطى التجربة المعروفة لدى زملائه : حميد سعيد وفوزي كريم وامال الزهاوي . ويقف الى جانبه شاعر مغمور : سركون بولص . وربما شعراء اخرون لم يتسنّ لي الاطلاع على شعرهم ، وكانت هذه المبادرة الشعرية قد تبناها اول الامر مجموعة من الشعراء في لبنان . لكنها توقفت عند حدود التجارب الاولى دون ان تعطي لنفسها الفرصة كي تطور الحس الشعري على مدى زمني متغير . وربما كان ذلك ناتجا عن يأس ، خلفه عدم الاهتمام من طرف الجماهير غير القارئة لهذا الشعر . لكن هذا اليأس في نظري ليس له اي مسبب حقيقي . لان الشاعر عندما يكتب ، فانما يفعل ذلك للمستقبل . وان اية حركة شعرية ناضجة لا تلقى اول الامر الا الصدود . وقد يدوم ذلك طويلا . اكثر من قرن مثلا ، لان هذه الحركة لا تضرب على وتر الذوق الشعري العام للعصر . ولان جمهورا شعريا كونته المدارس والجامعات على نمط معين من شعر يقرأه ـ فانه لا يستطيع ان يسمو بذوقه الا اذا مهدنا له الطريق الى ذلك . لهذا يبدو لي ان التوقف عن تطوير الاتجاه الشعري ، اذا جاء لسبب كهذا ، فيجب ان يرفض ، وان يشجب .

ان الحركة الشعرية التجديدية في لبنان ، وقفت اول الامر امام كل التحديات من طرف التقليديين ، العديمي الموهبة ، ويبدو لي الآن ان هذه الحركة ، ممثلة في شعراء لبنانيين بالذات ، قد ضعفت نسبيا وربما بسبب الذي ذكرت . على ان بعض المجلات ما تزال تبنى ، وتفتح ، في تحفظ ، بابها للجديد والجيد من الشعر العربي واللبناني لكن من يضمن الاستمرار ؟ ان مطامح الشعر يجب ان تتعدى الاعتبارات التقليدية الزائفة . واذا كان الارتباط بالتراث والتقليد يعتبر في حد ذاته ضرورة لاي تركيب شعري ، فاننا لا ننسى التلازم القائم بين الحرية والضرورة . فبقدر ما اتخطى بشعري عالما معروفا روتينيا الى عالم جديد ومجهول . بقدر ما اراعي ضرورة الانطلاق من نقطة معينة ، والوصول الى اخرى اكتشفها . أليس ذلك هو مطمح اية قصيدة انسانية (ولا اقول عالمية) ؟ وقد يبدو للشعراء ذوي النفس الكلاسيكي ـ تفكيرا وصياغة ـ ان خوض مواضيع مجردة مثلا ، انما هو الغاية والهدف . لذلك يفضل البعض منهم ان يتحدث عن الفضيلة تقيمة اخلاقية ، او العدالة ، او الصبر ، بالطريقة التي كتب بها شعراء اليونان العظام ، وشعراء الجاهلية الكبار ـ او تطوير هذه المفاهيم وتطعيمها باحساسات نرسيسية من القرن التاسع عشر . ان عصرنا يتخطى كل هذه الاشياء ، ولا يمنع ذلك من انه ـ بالضرورة ـ امتداد لمعطيات العصور السابقة . لذلك كانت محاولة تطوير عمليات الابداع ، محاولة لمد جسر للمستقبل ، وذلك قصد المساهمة الحقيقية في تطوير التاريخ الى ما هو افضل : سعادة الانسان .

ان الشاعر الحقيقي هو الذي يفعل ذلك مدركا الطريق الذي يمضي فيه نحو مستقبله الشعري . واذا رجعنا الى الشعر العربي القديم لوجدنا ان اغلبه كان اصيلا ، واستطاع ان يلقح التراث الانساني بعيدا عن اي افتعال . كانت له ارتباطات بواقعه القاسي في ذلك الوقت ، ولا نستطيع ان ننكر ما يحاوله الشعر الجديد في هذا المضمار . لكن هناك مشاكل كثيرة قد تحول دونه ودون تحقيق هذا الهدف فنظرا لظروف العصر الذي اصبحت فيه الثقافة تستنشق كالهواء ، يخشى المرء من سقوط الشاعر العربي في الاندماج كلية والذوبان في الموروث الغربي ، القديم منه والجديد . ان تطوير اية حركة شعرية ، لا بد وان يميزه استقلال نوعي عن اية حركة ابداعية اخرى ، والا ، فهي بدون ذلك لا تعني شيئا اطلاقا .

* * *

ويساعد الشاعر في تطوير شعره ، والارتفاع به الى مستوىجيد، ناقد ممتاز ، يتفهم المسار الابداعي للشاعر عبر مراحل القصيدة . هناك طبعا ، عدد كبير من النقاد يتحايلون على الشاعر والقصيدة والقارىء معا . ويوهمون الجميع انهم يبذلون جهدا كبيرا لفتح الطريق الى ابداع احسن . وكثيرا ما يخدعون الشاعر نفسه ، فتنجرف موهبته ، لثقته في آراء قارة ولا تنطبق عليه . ان كثيرا من النقاد يجنون جناية كبرى على الشعر . وذلك عندما يصدرون احكاما « مع » او « ضد » الشاعر نفسه . وخصوصا عندما تكون تلك الاحكام جاهزة،

او مركبة بطريقة منفرة ، خاضعة لاعتبارات فردية . ويعرف الجميع تلك العبارة الشهيرة التي اطلقها بوالو في الادب الفرنسي « واخيرا ، جاء ماليرب ! » ان هذه العبارة البسيطة التي اطلقها بوالو ، تضع حدا فاصلا بين فترتين حاسمتين في نظره . فترة لا شيء . وفترة جاء فيها ماليرب ليطور الاسلوب . وكان كل ما كان قبل ماليرب لم يكن له شأن يذكر . وقد تأثر كثير من النقاد بعد بوالو بهذه العبارة ، واعتبروا ان فترة ما قبل ماليرب ، ليست بذات شأن يذكر في الادب ، فلماذا دراستها والعناية بها .

ان بعض النقاد العرب الجدد يحاولون ان يصدروا احكاما من هذا النوع وذلك بعد ظهور فلان او علان من الشعراء . وهم يضعون بذلك حاجزا قويا امام مجموعة من المواهب ، التي تكون مضطرة ، خضوعا لراي الناقد ، الدخول في مجموعة « القطيع » . فالناقد يؤثر على الشاعر الموهوب حينما يضع له نموذجا معينا لشاعر معين على انه الشاعر الحقيقي ، ماليرب عصرنا الحقيقي . ولان الشاعر العربي الجديد ، الذي غالبا ما يخذله جمهوره ، يكون مضطرا للسير على ما رسمه له ناقده . لكن من يدلني على ان هذا الناقد يعرف هو نفسه اين يضع خطواته امام التجارب الكثيرة للشعراء في العالم ؟

لقد تعمدت في بداية هذه المحاولة الاستدلال بقصيدة غامضة لكامنجز . وذلك فقط للبرهنة على ان اية قصيدة مهما كانت غامضة ، ومركبة بطريقة غير مألوفة لدينا ، فهي تحمل قيمة في ذاتها . ان مهمة الناقد هي البحث عن هذه القيمة في ذاتها لاي عمل ، او نص ادبي . وفي نظري فان تقريب مناحي الجمال لذوق القارىء ، هو المطلب الرئيسي للنقد . وان اصدار احكام فارة يسيء الى مفهوم العمل الادبي . ورجائي في الاخير ، هو حذف كلمتي « رائد » و « رواد » . لاننا اذا فعلنا نفتح المجال للخروج بالقصيدة العربيه الجديدة الى آفاق بعيدة ، مترامية . فهناك اشياء كثيرة تنتظرها . ولست ادري اذا كان الشعراء العرب الجدد ، الذين لم يتمكنوا من نشر شعرهم قد استطاعوا ان يدركوا تلك الاشياء . وباختصار ، فلتطوير الحس الشعري في القصيدة ، يلزمنا تخليص الشاعر من قمع الناقد والناشر (مجلات ، صحف ، دور نشر .) واما الجمهور فهو ينتظرنا دائما عند نهاية الطريق متمنيا ان نصل اليه باحسن واسرع ما يمكن .

محمد زفزاف

دار الآداب تقدم

الانسان الاشتراكي

تاليف

آلان دوبتشر

ترجمة جورج طرابيشي

« اذا كان يخامرنا شيء من الاعتزاز لاننا كنا اول من قدم اسحاق دويتشر الى القارىء العربي عندما ترجمنا ثلاثا من دراساته في « تجارب اشتراكية » الصادر عن « دار الآداب » فان قدرا اكبر من الاسى يساورنا اذ نقدم له في الدار نفسها آخر ما كتب : « الانسان الاشتراكي » .

« ان هذا الكتاب يضم ، فضلا عن الفصل الاول من سيرة لينين التي حال موت المؤلف دون اتمامها ، خمسة نصوص تكفي عناوينها وحدها للدلالة على مدى اهمية المشكلات التي تناولها بالتحليل : « الماركسية في عصرنا » و« الانسان الاشتراكي » و« جذور البيروقراطية » و « حول الاممية والنزعة الاممية » و« التيارات الايديولوجية في الاتحاد السوفياتي » .

« وفي هذه النصوص يبرز وجه دويتشر منظرا ماركسيا ثوريا من غير ثرثرة واوهام ، وواقعيا من غير مساومة واستسلام . ولعل اهم ما يميز تفكير دويتشر هو تفاؤله .. وقد عبر قبيل وفاته بايام عن ثقته بان القرن العشرين لن تطوي صفحته الا ويكون قد قام في العالم شيء اسمه « ولايات اوروبا الاشتراكية المتحدة » كما يكون الاتحاد السوفياتي قد انجز بناء الاشتراكية بعد ان يتحرر نهائيا من شوائب التركة الستالينية ...

« اشتراكية مبنية على الحرية : ذلك هو جوهر مذهب دويتشر واساس مفهومه عن « الانسان الاشتراكي » ومفتاح موقفه من التجربة السوفياتية في بناء الاشتراكية ... »

من مقدمة المترجم

صدر حديثا ـ ثمن النسخة ٤ ليرات لبنانية او ما يعادلها